اليزيدية (١)

عقائدهم وتقاليدهم

لقبصر صادر
عضو جمعية العاديات السورية

اليزيدية طائفة تنتمي كثرتها الى الجنس الكردي وقد امتزجت بالشعوب السامية في سوريا والعراق وبالشعب الأرمني في آسيا الصغرى . وتشتق تسمية هذه الطائفة على ما اجمع عليه علماء التاريخ من كلمة « إيزد » الفارسية الاصل ومعناها خالق بالعبادة وهي تطلق على الملائكة التي تتوسط بين الله والبشر وفي اعتقاد اليزيد انهم من اتباع تلك الملائكة

ولهم ديانة خاصة تكونت عناصرها من مزيج سائر ديانات الشرق الأدنى وبني هذه الديانة هو شيخ متصوف يدعى الشيخ عادي عاش في جبال الموصل بين القرنين الخامس والسادس للهجرة بيد ان منشأه وسيرته الحقيقية وتاريخ ديانته يحيط بها الغموض وتغشيها الاوهام والخرافات لفقد مراجع تاريخية جديرة بالاعتبار ولتشدد اليزيد في صون اسرار دياناتهم وما يتعلق بها

على ان اتباع هذه الديانة كانوا منتشرين فيما مضى من اقاصي بلاد العجم والعراق حتى البلاد السورية وكانوا يقطنون على الاخص في سامرة وشرقاط (٢) وفي ضواحي حلب والشام وفي قرى اورفه وحران وسمره ونصيبين وبيره جيك وعينتاب حتى وفي نواحي فزان وان كان لهم الوف من القرى . اما اليوم فقد تضاءل عددهم كثيراً بسبب الاضطهادات الدينية والمظالم المريعة التي حلت بهم على عهد الحكومة العثمانية فلم يبق منهم غير ما يقرب من خمسين الفاً وكادوا ينحصرون في

(١) عني الدكتور قسطنطين زريق استاذ التاريخ الشرقي في جامعة بيروت الاميركية بنشر كتاب عنوانه «اليزيدية قديماً وحديثاً» ضمنه سيرة احد امراء اليزيد المعاصرين يرويها صاحب السيرة نفسه وقد صدرها الدكتور زريق بمقدمة شائقة حافظاً على ايراد نصوص السيرة بلغة واضعها العامية فجاء كتابه سفراً قيماً اتحفنا منه مقالتنا هذا . فتوجه نظر من يحب التوسع في موضوع بحثنا الى هذا الكتاب الذي يطلب من المطبعة الاميركية في بيروت (٢) قرب آثار النفط المراتية

سهول قضاء الشيخان وجبل سنجار حول لواء الموصل اذا ما استثنينا قراً ما زال يقطن في بلاد الحجم وفي البلاد الأرمنية الواقعة على حدود تركيا وروسيا وفي جبال كليس وعينتاب وديار بكر وماردين التركية

اما مركز زعامتهم فهو في قرية باعدري من قضاء الشيخان الواقع في الشمال الشرقي من الموصل حيث مزار شيخهم الشيخ عادي وقاعدة اميرهم الميرميران

﴿ احوالهم العامة ﴾ يتكلم اليزيد الكردية بلهجات مختلفة والتركية في آسيا الصغرى والعربية في سوريا والعراق ويقدسون نحو الجنسية معتقدين ان الله قد كلّم آدم واوحى بوصاياه لموسى بالكردية

وهم رجال اشداء ، طوال القامة ، اقوياء البنية ، سود العيون ، حمر الوجوه بلحى مسترسلة يتحلون بمزايا حسنة منها صدق القول ونزاهة الاخلاق والجد في العمل وحب الحرية والاستقلال ويعرفون بالنظافة وطهارة العيش ويعاقبون الزنى اشد العقاب ويجلّون كبارهم اجلالاً تاماً ، يشتغلون بزراعة الارض وتربية المواشي وكثير منهم ما زال في طور البداوة يؤلفون قبائل رحّالة تدعى « الكوچر » ونظامهم الاجتماعي ما برح في الدور القبلي . فكل قبيلة منهم تقسم الى بطون والبطون يرأسها شيوخ يديرون امرها ويتقسمون بمجموعهم الى طبقات معينة تفصل بينها حدود واضحة . فمنهم العوام ومنهم الروحانيون الذين ينتظمون في فرق مختلفة وهم شديدو التحفظ على تقسيمهم الاجتماعي والديني لاعتباره العامل الذي يضمن سلامة جنسيتهم ونظام مذهبهم فلا يُسمح مثلاً لاحد افراد طبقة ما ان يتزوج من غيرها ولا ان يرتقي الى ما هو اعلى منها والويل لمن فعل فبالحجارة يُرجم وبالسوط يجلد وشر ميتة يموت

يترأس جماعة اليزيد شيخان احدهما زمني من نسب آل يزيد يلقب الميرميران يعني اميرالامراء يقطن في قرية باعدري كما تقدم بنا القول ويدير امور طائفته المدنية ويمثلها امام العالم الخارجي . والآخر روحاني يمثل السلطة الروحية العليا وهو المرجع الاعظم لكل ما يتعلق بالدين والعقائد اليزيدية يساعده في مهمته هذه جماعة من الروحانيين ينتظمون في خمس فرق مختلفة لكل منهم لباس خاص واعمال دينية معينة

الشيخ اعلاهم رتبةً وهو مكلف إسترضاء الانبياء

والپير كاهن يختص بامور الصوم والافطار

والفقير يعلّم اولاد الفقراء طقوس الديانة ويخدم قبر الشيخ عادي

والقوال يدق بالدفوف والشابات ويتلو مدائح الله والملائكة

والكوچك يتلقى الاموات ويكفنهم ويفسر الرؤى والاحلام

﴿ عقائدهم الدينية ﴾ الشائع عن الديانة اليزيدية انها عبادة الشيطان بيد ان من يقف على عقائدها الصحيحة يجد نفسهُ امام ديانة الهية ولكنها لا تخلو من بعض معتقدات طريفة وقد تشربت نواتها من عناصر وثنية قديمة وايرانية زردشتية ويهودية ونسطورية وصوفية ومانوية وشامانية وهي تقوم على الايمان بوجود اله خالق كبير يعاونهُ في ادارة الكون سبعة ملائكة انبثقوا من نوره وسمّوا عزرائيل ودردائيل وميخائيل واسرافيل وزرزائيل وشمخائيل ونورائيل وقد ابدع كل من هؤلاء جزءاً من هذه الدنيا حتى صارت كاملة فاختار الله عندئذٍ الملك الاعظم عزرائيل لمهمة خطيرة مما عهم ان تمرّد فيها على اوامره سبحانهُ وتعالى فعوقب على خطيئته وندم وبكى دموعاً اطفأت نار جهنم فغفر لهُ الله خطيئتهُ واعاده الى مركزه الرفيع وولاهُ امر الخليقة وادارة الكون . واليزيد يعظمون هذا الملك الذي يلقبونهُ ايضاً بالملك طأووس ويضرعون اليه باعتباره مدبّر الكون وراعي شؤونه ويلتمسون منهُ كل حاجاتهم عن يد نبيهم الشيخ عادي فيكون اذاً ثالوثهم المقدس مكوناً من الله والملك طأووس والشيخ عادي . وهم يدعون ان اصول ديانتهم التالية موحاة اليهم من الملائكة والاولياء ولكنهم في الواقع يمارسون الصوم وتقديم الضحايا في بعض اعياد سيأتي الكلام عليها اقتباساً من الاسلام ويأخذون المعاد والنصيحة والعشاء الرباني وتحليل شرب الخمر عن النساطرة وتحريم بعض الاطعمة عن اليهود والسجود عن الوثنيين وتفسير الرؤى والرقص في الصلاة عن الشامانية ويؤمنون بالحلول والتقمص اخذاً عن الصابئة وهم اعتقاد قويم بوجود اخر لكل يزيدي في الآخرة على مثال الملاك الحارس ، يتحتم عليه مرضاته وتكريمه ، ويبالغون في كتمان العقيدة على مثال الصوفية ويعتبرون الصلاة بالسر خير ما يكون ولا يحددون لها الفرائض مدعين ان كتبهم في قلوبهم وان الملك طأووس يرشد اجيالهُ من دون كتاب ويهديهم غيباً وتكون تعاليمه في كل حين موافقة للظروف وملائمة لتطور الايام . على ان لهم كتابين مقدسين « الجلوه » و « مصحفارش » ومعنى هذا الاخير بالكردية الكتاب الاسود . وهذان الكتابان يتضمنان اصول ديانتهم المتقدمة الذكر وصلواتهم وانا شيدهم وتهاليلهم واعيادهم وطقوسهم واساطيرهم المقدسة نقتطف منها بعض الشيء بقدر ما يسمح لنا المجال

***

﴿ اساطيرهم المقدسة ﴾ عندهم اسطورة التكوين ان الله صنع مركباً وسار عليه في جوانب البحار وخلق من ذاته درةً وحكم عليها اربعين الف سنة ثم غضب عليها ورماها فتكوّنت الجبال من غضبه ومن دخانها صارت السموات وصعد الله الى السموات وجددها وركزها بغير أعمدة

اما اسطورة بدء الخليقة فهي على مثال ما ورد في التوراة عن جبل آدم من تراب الارض ولكنها تختلف عنها من حيث ان صانع الانسان الاول كان الملك طأووس فانهُ بعد ما جبل آدم من تراب

وماء ونار وهواء نفخ في انفيه فانتصب على رجليه وأسكنهُ الجنة مدة اربعين سنة وخلق له من تحت ابطه الشمال حواء وجعلها معهُ ولكن الله تعالى امر باخراجهما من الفردوس فطهما الملك طاؤوس الاسفار البشرية كلها واطعمهما من شجرة الحنطة ونفخ في بطنها والقاهما على الارض وكانا بلا مخرج فتضايقا فأرسل لهما طيراً اسمه القلاّج تقرها وهما يأمان ففتح لها مخرجاً واستراحا فلما استيقظا من غيبوبتهما تنازعا على نسبة النسل وقررا ان يأتي كل منهما شهوته في جرة ويختمها. فبعد انقضاء تسعة اشهر فتح آدم جرته فطلع بها ولدان ذكر وأنثى سماها شيث وهورية فأرضعهما مدة سنتين من ثديه وتناسلت منهما الامة اليزيدية . اما جرة حواء فسد مضمونها. وبعد هذا عرف آدم امرأته حواء فولدت جنيين لعام ذكراً وأنثى سماها قايين وهليونه تناسلت منهما سائر طوائف هذا العالم

ويروون ايضاً قصة الطوفان على شبه ما وردت في اسفارنا المقدسة ويعتقدون ان سفينة نوح استقرت بعد الطوفان على جبل سنجار

***

﴿ اعيادهم وملقوسهم ﴾ كان اليزيد يقدسون يوم الاربعاء ويعطلون فيه عن العمل الاّ انهم حوّلوا ذلك منذ حين الى يوم الجمعة مجاراةً للاسلام ولم ما عدا ذلك اعياد دينية وشعبية تفوق بروقها وطابعها القبلي الخاص بهجة اعياد سائر الشعوب المتحضرة . في طليعة هذه الاعياد رأس السنة ويسمى بالكردي «سرصالي» . يصادف هذا العيد عندهم يوم اول نيسان (ابريل) بالحساب الشرقي. ففي نصف ليلة هذا العيد ترتدي النساء افخر ما لديها من الالبسة وتتزين بالحلي وترقص مع الرجال على انغام التراتيل الكردية إعتقاداً منهن ان الملائكة ستأتي في تلك الساعة وتسوم الناس هذه العبادة

ثم تلو كل ايام نيسان اعياد حافلة يحرم فيها الزواج اجلالاً للانبياء الذين يتزوجوا في شهر الورود ويمتع خلاله البناء ضناً بخلة الخضراء والازهار الجميلة التي تزدان بها الارض ويطوف الشبان والصبايا في البراري والحقول ويجمعون الورود طاقات جميلة يكللون بها ابواب البيوت ويتحتم على كل بيت ان يضحي في اول اربعاء من هذا الشهر بقراً وغناً او دجاجاً بحسب طاقته وان يضعها في قدور مطبوخة على قبور موتاه صدقة عن نفسها . ثم تحتفل الطائفة اليزيدية احتفالاً شائقاً بعيد «بيراندة» اي عيد ولادة ملكهم يزيد الواقع في ١ كانون الاول (دسمبر) فيفرحون به ويشربون الخمر ويولمون ولائم فاخرة تدوم حتى الصباح

وفي اليوم العاشر من شهر ايلول (سبتمبر) يحج جميع اليزيد الى قبر الشيخ عادي في قرية باعدري ليحيوا عيد الجماعة وهذا العيد هو عبارة عن سلسلة احتفالات تجري حول تخت الملك يزيد . فتزايد كل القبائل في نصب هذا التخت ويخلع امير الشيخان عباءة مزركشة على اغا العشيرة

الذي ترسو المزايدة عليه فينصب التخت المذكور بين اطلاق الرصاص والاهازيج ونقر الدفوف والتشيب . ويذبحون ثوراً مقدماً ويطبخونه فكل من يتوصل الى الفوز بلقمة منه ينال مرامه ولا يغادرون قبر نبيهم ما لم يقدموا له احسن الهدايا التي في وسعهم ان يجودوا بها . ولهم اعياد أخرى ثانوية منها عيد القربان تذكار تقدمة ابراهيم ابنه اسحق للرب . ففي هذا العيد يتسلقون جبلاً عالياً متسابقين الى مكان معين يجمعون منه الاحتطاب ويحملونها هدية الى مطابخ الامير ويتحتم على كل يزيدي ان يذبح ذبيحة في هذا اليوم. ويعيدون في اول خميس من شهر شباط (فبراير) عيد الخضر الياس ويحتفلون قبل عيد رمضان بيومين بتذكار خلاص احد اوليائهم من السجن ويخصصون اليوم العاشر من شهر كانون الاول (دسمبر) لعيد الاموات. فيزورون فيه موتاهم ويكرمون ذكراهم ويمتثلون لامر الله بالصوم والصدقة والخير فيصومون اربعين يوماً في السنة منها في شهر كانون الثاني (يناير) ومنها في شهر تموز (يوليو) ولا يتأخرون عن تقديم الصدقات لفقراء الملك طاووس

***

يعتقد اليزيد ان كلاً من الملائكة السبعة صنع له سنجقاً على الارض جمعها سليمان الحكيم لديه ثم صارت بعد موته الى يد ملوك اليزيد وهذه السناجق مصنوعة على أشكال نحاسية وحديدية تعلوها صورة طاووس وهي محفوظة عند امير الشيخان مع طلاسم اخرى موروثة عن بعض معابد قديمة كتماثيل حيات وعقارب وغيرها من تعاويذ يزعمون ان الملك طاووس يتحل اشكالها ليخرج خفية من الجنة ويهبط على الارض وهم يجلون السناجق والطلاسم المذكورة ويطوف بها كهنتهم في بعض مواسم السنة على قراهم كافة بطقوس واحتفالات هي غاية في الغرابة ويجري الطواف المذكور ثلاث مرات في السنة على المنوال الآتي فيستقبلها المؤمنون بحماسة فائقة ويقدمون لها التبرعات التي يعود اكثرها للامير

يسند القوالون السناجق المذكورة عند اخراجها من مخابئها بماء الساق ويأخذون مع كل منها حملاً مجبولاً على اشكال الخص من تراب الشيخ عادي لتوزيعها على اهالي القرى التي يأمّونها على سبيل البركة

وعندما يقتربون من قرية يزيدية يوفدون امامهم منادياً يخبر الناس على استقبال صورة الملائكة فيخرج جميع السكان بحلل يضرب لطيفة وأرجل حافية مسبحين مهللين مقدمين البخور والعطور والنساء يمشين امام السناجق مزغردات فرحاً . وما يكاد الموكب يحط رحاله في الساحة العامة من القرية المقصودة حتى يأخذ اكابر تلك القرية بالمزايدة للحصول على شرف ادخال السنجق تحت سقف بيوتهم . وينصب له صاحب اليد الطولى منصة عالية في صدر مسكنه يسند عليها الطاووس بكل تبجيل واحترام ويشعل حوله الشرج ويجلس القوالون عن يمينه

وشبانه ويشرعون في ضرب الدفوف وقرع المزمار فيتدفق الناس من كل جدب وصوب للتبرك والزيارة ويدورون جماعات حول الطاووس سبع دورات بخضوع وخشوع واضعين ايديهم على صدورهم رمزاً الى تكفيرهم عن خطاياهم ثم يسجدون ويقبلون الطاووس ويقدمون له الهدايا والنذور التي نووا بها في قلوبهم من مال ومأكول فيقرأ القوالون صلاة على رؤوسهم للغفر بها خطاياهم كافة وفي الليل يغسلون الطاووس بماء الساقي ويدهنونه بالزيت ثم يملأون جرة معدنية خاصة بالماء المذكور ويعطون منها لكل مؤمن لغسل باطنه وظاهره

***

﴿ بعض تقاليدهم وعاداتهم ﴾ نخص بالذكر من تقاليدهم وعاداتهم الكثيرة اهمها واشدها بروزاً . كانوا فيما مضى يحرّمون تعلم القراءة والكتابة على العوام ويعصرونه في أسرة واحدة تقطن في قرية بمشيقة غير انهم بدأوا يتسامحون في ذلك مؤخراً واخذ اولاد امرائهم يفدون الى كليات بيروت

اما فيما يتعلق بسائر تقاليدهم فما زالوا يتمسكون بها تمسكاً قوياً ومنها ان الروحانيين لا يمرّون موسى على وجوههم تيمناً باقبال الخير والعوام لا يرتدون الثياب الزرق ولا ذات الطوق المفتوح . ولا يقضون الحاجة في المستراح ولا يصفون علناً ولا يلبسون السروال قعوداً ولا يتبولون وقوفاً . فهذه كلها محرمة كما حُرّم عليهم التلفظ باسم الشيطان وبكل لفظ يشبهه اكراماً للملك طاووس وفيما يخص المأكولات فقد نهوا عن اكل لحوم الخنزير والديك والغزال والسمك وعن الحمص والملفوف (الكرنب) والقرع والباميا من انواع الخضروات وعن الشرب من كوز وهم يتجنبون اكل فضلة غريب وعندهم لكل من هذه المحرّمات أسباب يطول بنا شرحها

***

﴿ أفراحهم وحفلات زواجهم ﴾ بقي علينا وصف حفلات افراحهم وطريقة زواجهم ونظامه

يشترط ان يكون في كل عرس طبل يقرع ورمز يدوي شهادة على حدوث الزواج الذي يتم باحضار رغيف خبز من بيت الامراء او شيخ القرية وقسمته بين العروسين كناموس للخطبة وعقد النكاح وفي اواخر العرس يعلن وقوع النكاح بطلقات نارية وبشهادة أخرى مقنعة تمسك عن ذكرها فيرفض المدعوون وتنتهي الحفلة ويتحتم على كل شاب ان يتزوج من طبقته مراعاة للتقاليد الا الامير فله ان يختار عروسه من اية طبقة احب وشاء . والزواج يكون مسموحاً به من سن الاثنتي عشرة حتى الثمانين ويسوغ لليزيدي الزواج بالواحدة تلو الاخرى حتى السادسة ولكنه يحرّم عليه ان يجمع بين اثنتين بغير رضى الاولى . واذا رزق اولاداً من اولى نسائه لا يسمح

لهُ بأن يتزوج مع وجودها من امرأة اخرى . اما الفتاة فلا ترث ابيها وتباع كسلعة واذا امتنعت عن الزواج المختار لها وجب عليها ان تؤدي لأبيها حقه فضةً او شيئاً من خدمتها وتعب يديها . واذا اختطف احد امرأة غيره يترتب عليهِ ان يعوض لهُ عنها بامرأته او بأمه او بأخته او ارضائه بمالٍ واذا تغيب رجل عن زوجتهِ حولاً كاملاً يحرم عليهِ ولا يُعطى غيرها. ويحرّم ايضاً على اليزيدي ان يتزوج من امرأة اخيه او من امرأة عمه او من امرأة خاله او من اختين من امٍّ واب

والموت عندهم ليس بالمرحلة الاخيرة من هذه الدنيا بل هو على اعتقادهم سبات يعودون بعده الى هذه الحياة مراراً فاذا كان الرجل شريراً تقمّص روحه في جسم حيوان تكفيراً عن سيئاتها واذا كان صالحاً عاد الى مرتبة ارقى من مراتب طائفتهم حتى يبلغ درجة الكمال . فعند حدوث وفاة أحدهم يضعون في كفنه حفنةً من تراب الشيخ عادي ويمسحونه بهِ قبل دفنه ويقرّبون اطعمة عن روحه وتسهر الكواجك على قبره فيتراءى لها في الليل ما حلّ بروحه

***

ويجدر بنا ان نختتم مقالنا بوصايا الملك طأووس المنزلة بكتاب «جلوة» المقدّس التي تتجلى فيها عظمته وسطوته وجبروته : يقول الملك طأووس : —

« المال مالي والبشر عيالي . أنا أفقر وأنا أثري أنا أسعد وأنا أشقي

« لا أحب من يدعوني باطلاً ومن يذكرني أمام الناس أنكره في السماء . أنا أحب من يحبني من اعماق نفسه

« ومن يكرمني ارضى عنهُ وأتجاوز عن سيئاته وأقبل منهُ سجية ككرمه عوضاً عن الصوم والصلوات

« أنا أعاقب في عوالم الآخرة من يخالف شرائعي على الارض . ومن لا يشك فيَّ ويدعوني دائماً أحضر عنده في ساعة الضيق والحاجة . أهدي غياثي احبائي وأتباعي . اياكم أن تذكروا صفاتي أمام الاجانب فتخطئون

« لانكم لا تعلمون ما يفعلون . من لا يحسد منكم ولا يزني ولا يكفر ولا يعمل مثل الهراطقة أسامحهُ يوم القيامة وارجو من الرب ان يغفر لهُ ويدخله الجنة »

***

واليزيد على اعتقاد يقين بأنهم سيجدون يوم القيامة الشيخ عادي واقفاً بانتظارهم على باب الجنة فيحملهم جميعاً في طبق على رأسه ويعبر بهم بوابة الفردوس آمنين مطمئنين بلا حساب ولا دينونة ولا عقاب